الفصل الرابع والثلاثون[١]

في تفصيل الإسلام والإيمان وعقود[٢] شرح معاملة القلب من مذاهب أهل الجماعة

قال الله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوفُوا بِالعُقُودِ﴾ [المائدة:١]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ﴾ [المائدة:٨٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب:٥]. وقال جل ثناؤه: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٥].

فعمدُ القلوب وكسبها هو عقودها وأعمالها، وعقود القلب التي هي السنة المجمع عليها، نقلها الخلف عن السلف، ولم يختلف فيه اثنان من المؤمنين. فيها ستة عشرة خصلة؛ ثمان واجبات في الدنيا، وثمانٍ واقعات في الآخرة.

فأما اللاتي هنّ في الدنيا: أن يعتقد العبدُ أن الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، ويقوى بالعلم، ويضعف بالجهل. وأن القرآن كلام الله عز وجل غير مخلوقٍ، وعلمه القديم صفة من صفاته، هو متكلمٌ به بذاته.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «ما تقرَّب العبد إلى الله عز وجل بأفضل من شيء خرج منه وهو كلامه».

وروينا عن ابن عباس: أن عليًا رضي الله تعالى عنهما دعا عند قتال صِفّين: يا كهيعص أعوذ بك من الذنوب التي توجب النِّقم، وأعوذ بك من الذنوب التي

---

(١) في نسخة (د): «الفصل الثالث والثلاثون».

(٢) في (د): «وعقود السنة واعتقاد القلوب من شرح معاملة القلب من العلم الظاهر، وذكر دعائم الإسلام، وذكر أركان الإيمان والإسلام، والاستثناء في الإيمان، والإشفاق من النفاق، وطريق السلف من ذلك».

تغيِّر النعم، وأعوذ بك من الذنوب التى تهتك الحُرُم، وأعوذ بك من الذنوب التى تحبس غيث السماء، وأعوذ بك من الذنوب التى تُديل الأعداء، انصرنا على من ظلمنا. قال الضحاك بن مزاحم: فكان على رضى الله عنه يقدم هذه بين يدى كلِّ شديدة.

وفيما روّينا عن النبى ﷺ من قوله: «أعوذُ بكلمات الله وأسمائه كلها»، كما قال: «أعوذ بعزة الله وقدرته» ـ دليل أن الكلام والأسماء صفات

وعن على رضى الله تعالى عنه حين حكَّم الحكَمين، فنقم عليه الخوارج ذلك وقالوا: حكّم فى دين الله المخلوقين. فقال: واللهِ ما حكَّمتُ مخلوقًا، ما حكَّمت إلا القرآن.

وقال أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه حين سمع قرآن مسيلمة الكذّاب الذى افتعله وتخرَّصه يُضاهى به كلام الله تعالى: والله ما خرج هذا من إلٍّ ولا من تقىٍّ. قال أبو عبيدة: يعنى ما خرج من الله تعالى . قال: وفيه دليلٌ أن القرآن غير مخلوق، وأنه خرج من الله تعالى تكلّم به. قال: ومن هذا قوله تعالى: ﴿لاَ يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١]، معناه: الله عز وجل لا يرقبونه.

وقد روينا عن رسول الله ﷺ بمعنى ذلك فى قوله: «فضلُ كلام الله عز جل على سائر الكلام كفضل الله تعالى على خلقه»، وذلك أنه خرج منه. وقرأتُ فى مصحف ابن مسعود قال: يا موسى قد فضّلتك برسالاتى وبكلامى على النّاس. وهذا لا يجوز فيه إلاّ التكلم بالذات، مع قوله سبحانه وتعالى: ﴿وكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]. قال أهل اللغة: المصدر إذا أُدخل فى الفعل فهو للمواجهة والوصف، لا للأمر بالفعل، ولا على المجاز.

ثم تسليمُ أخبار الصفات؛ فيما ثبتت به الرّوايات، وصح به النقل، ولا يتأول ذلك ولا يشبّه بالقياس والعقل، لكن يعتقد إثبات الأسماء والصفات بمعانيها وحقائقها لله تعالى، وينفى التشبيه والتكييف عنها، إذ لا كُفُؤَ للموصوف فيُشبَّه به، ولا مِثل له فيُجنَّس منه، فنقول كما سمعنا، ونشهد بما علمنا، على أنه ليس

كمثله شيء فى كل وصفٍ فنثبت[1] ولا نشبِّه، ونصِفُ ولا نمثِّل، ونعرِّف ولا نكيِّف.

وفى رد أخبار الصفات بطلان شرائع الإسلام، من قِبَل أن الناقلين إلينا ذلك هم ناقلو شرائع الدين وأحكام الإيمان، فإن كانوا عُدولاً فيما نقلوه من الشريعة، فالعدل مقبول القول فى كلّ ما نقله، وإن كانوا كذبوا فيما نقلوا من أخبار الصفات، فالكذّاب مردود القول فى كل ما جاء به، والكذب على الله كفرٌ، فكيف تُقبل شهادة كافر؟ وإذ جاز أن يجترئوا على الله عز جل بأن يزيدوا فى صفاته ما لم يسمعوه عن رسول الله ﷺ، فهم إلى أن يكذبوا على الرسول فيما [نقلوا][2] من الأحكام أولى. ففى ذلك أيضًا إبطال الشريعة، وتكفيرُ النَّقَلة من الصَّحابة والتابعين بإحسان. فلذلك كفّر أصحاب الحديث مَن نفى أخبار الصفات. ونعتقد تفضيل أصحاب رسول الله ﷺ وأهل بيته رضى الله عنهم ورضوا عنه كافّة، ونسكت عمّا شجر بينهم، وننشر محاسنهم وفضائلهم لتأتلف القلوب بذلك، ونسلّم لكلٍّ واحد منهم ما فعله؛ لأنهم أعلم منا وأوفر عقولاً. فقد عمل كلٌّ واحدٍ بعلمه ومنتهى عقله فيما أدَّى إليه اجتهاده، وإن كان بعضهم أعلم من بعض، كما أن بعضهم أفضل من بعض. إلا أن علومنا وعقولنا تضعف وتقصر عن علم أدناهم علمًا. كما فُضِّلوا علينا بالسوابق سبقًا، ونُقدِّم من قدَّمه الله ورسوله، وأجمع المسلمون الذى تولّى الله إجماعهم على الهداية، وضَمِن لرسوله ﷺ تفضيلاً لهم وتشريفًا لهم أن لا يجتمعوا على ضلالة.

وقد قال علىٌّ لما قِيل له: ألا تستخلف علينا؟ فقال: لا أستخلف عليكم، بل أكلكم إلى الله عز وجل، فإن يرد بكم خيرًا جَمَعكم بعد نبيكم على خيركم.

قال إبراهيم النخعى: فلما سلّم الحسن بن على رضى الله تعالى عنهما الأمرَ إلى معاوية سُمِّيت سنة الجماعة. وقال له رجلٌ من الشيعة: يا مذلَّ المؤمنين. فقال: بل أنا مُعز المؤمنين، سمعت أبى عليه السلام يقول: لا تكرهوا إمارة

(١) من قوله: «فنقول» فى الصفحة السابقة إلى هنا ساقط من المطبوعة.

(٢) ساقطة من المطبوعة.

معاوية، فإنه سيلى هذا الأمر بعدى، وإن فقدتموه رأيتم السُّيوف تَبْدُر[1] عن كواهلها كأنها الحنظل.

فليعتقد بقلبه من رضى الصحابة بإمامته، وأجمعوا على خلافته، واتفق الأئمة من أهل الشورى على تقدمته، على حديث ابن عمر فى التفضيل، قال: كنا نقول على عهد رسول الله ﷺ: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان، فيبلغ ذلك رسول الله ﷺ فلا ينكر. وعلى حديث سَفِينة مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الخلافة بعدى ثلاثونَ سنة ثم تكون مُلكًا».

فهؤلاء الأربعة خلفاء النبوة؛ وهم أئمة الأئمة من العشرة، وعيون أهل الهجرة والنُّصرة، وخِيار الخيار من الأصحاب. كما روينا عن النبى ﷺ: «إن الله عز وجل اختار أصحابى على العالمين، واختار من أصحابى أربعة فجعلهم خير أصحابى، وفى كلٍّ أصحابى خير، واختار أمتى على الأمم، واختار من أمتى أربعة قرون، فكل قرن سبعون سنة».

فإنما نحن قومٌ متبعون، نقفو الأثر، غير مبتدعين بالرأى والمعقول نردّ به الخبر، إذ لا مدخل للقياس والرأى فى التفضيل، كما لا مدخل لهما فى الصفات وأصول العبادات، وإنّما يؤخذ التفضيل توقيفًا وتسليمًا ومن طريق الإجماع والاتباع خشية الشُّذوذ والابتداع، لقول الرسول ﷺ: «عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين بعدى، عَضُّوا عليها بالنواجذ، ومن شذّ ففى النار». وقال تعالى فى تصديق ذلك: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١١٥]. وإنما جاء الترتيب فى التفضيل والخلافة مخالفًا للقياس، والمعقول، توكيدًا للنبوة وتأييدًا للرسالة، لئلا تلتبس النبوة بالمُلك، ولا ينحو النبى ﷺ فى الخلافة نحو الأكاسرة والأقاصرة فى المملكة. كما كانت النبوة مخالفة للمُلك جاءت الخلافة على غير سيرة الملوك من استخلاف أبنائهم وأهل بيتهم، ولو كان للمعقول والقياس مدْخل فى التفضيل لكان أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ الحسن ابنه لأن فيه النبوةَ، والعباس عمّه إذ فيه الأبوَّة، وقد أجمعوا على خلاف ذلك.

(١) فى (د، م): «الرّءوس تنذَرُّ».

وبمعنى هذا من إخراج الخلق من المألوف، ورفع سكونهم عن المعهود: أن أبا قحافة وأبا سفيان ماتا مؤمنين، وأنا أبا رسول الله ﷺ وعمه ماتا كافرين. أجمع أهل النقل والتواريخ[1] على ذلك. وقال أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه لما أسلم أبوه بين يدى رسول الله عام فتح مكة: والله يا رسول الله لإسلام أبى طالب كان أحب إلىَّ لو أسلم من إسلام أبى؛ ليقرَّ الله به عينك. فبكى رسول الله ﷺ.

وأيضًا فلمَا سبق فى علم الله تعالى أن يجعل هؤلاء الأربعة خلفاء النبوة بما قدَّر الله من أعمارهم، فلم يكن يتم ذلك إلا بترتيبهم على ما رُتِّبوا فى الخلافة. فكان آخرهم استخلافًا هو آخرهم موتًا. فدبّر خلافتهم على ما علم من آجالهم، ووفّى لهم بما وعدهم من استخلافهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم من خلائف أنبيائه السّوالف، ومكّن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، وبدّلهم أمنًا بعد خوفهم، كما قال الصادق فيما عهد: ﴿ومَنْ أَوْفَى بِعَهْدِه منَ الله﴾ [التوبة:١١١] فذلك تأويل قوله عز وجل: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَستَخلِفَنَّهُمْ فى الأَرْضِ كَمَا استَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم﴾ [النور:٥٥] الآية.

وأن يعتقد أن الإمامة فى قريش خاصةً دون سائر العرب كافة إلى يوم القيامة، وأن لا يخرج على الأئمة بالسيف، ويصبر على جورهم إن كان منهم، ويشكر على المعروف والعدل، ويطيع إذا أُمر بالتقوى والبر، حتى تأتيه يدٌ خاطئة أو منيَّة قاضية. كذلك السنَّة.

قال عالمنا أبو محمد سهل رحمه الله تعالى: هذه الأمة ثلاث وسبعون فرقة: اثنتان وسبعون هالكة، كلهم يبغض السلطان، والناجية هذه الواحدة التى مع السلطان. وسئل: أى الناس خيرٌ؟ فقال: السلطان. قيل: كنا نرى أن شر الناس

---

(١) حاشية فى (هـ) بخط مخالف للأصل ما نصه: «أقول: بل فيه اختلاف كثير. والحق أن أبوى رسول الله ﷺ ماتا مؤمنين، يؤيده قوله تعالى: ﴿وتَقَلُّبَك فى السَّاجدين﴾ [الشعراء: ٢١٩]، وقوله: ﴿ربَّنا وابعث فيهم﴾ أى فى الأمة المسلمة ﴿رسولاً منهم﴾ [البقرة:١٢٩] ولم يبعث من ذريته غير محمد ﷺ. فثبت إيمان أبويه». ثم وقع الكاتب باسمه ولكنه غير مقروء. وقد كتب السيوطى رسالة فى ذلك يؤيد ما ذكره صاحب الحاشية.

السلطان. فقال: مهلاً، إن لله تعالى في كل يوم نظرتين، نظرة إلى سلامة أموال المسلمين ودمائهم، ونظرة إلى سلامة أبكارهم[1]، فيطّلع في صحيفته فيغفر له جميع ذنوبه. وقال أبو محمد: الخليفةُ إذا كان غير صالح فهو من الأبدال، وإذا كان صالحًا فهو القطب الذي تدور عليه الدنيا. قوله «من الأبدال» يعني أبدال الملك. كما حُدّثنا عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال: أبدال الدنيا سبعة، على مقاديرهم يكون الناس في كل زمان من العبّاد، والعلماء، والتجار، والخليفة، والوزير، وأمير الجيش، وصاحب الشرطة، والقاضي وشهوده.

ورويتا في الخبر: «عَدْلُ ساعةٍ من إمامٍ عادل خيرٌ من عبادة ستين سنة». ويقال: إن الإمام العادل يوضع في ميزانه جميع أعمال رعيته. وكان عمرو بن العاص يقول: إمامٌ غشوم خيرٌ من فتنة تدوم.

وقال النبي ﷺ: «يكون عليكم أمراء يُفسدون وما يُصلح الله تعالى بهم أكثر، فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر، وإن أساؤوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر». وفي الخبر الآخر: «يليكم أمراءٌ يقولون ما لا يعرفون، ويفعلون ما ينكرون ـ وفي لفظ: يفعلون ما لم يؤمروا ـ قلنا: أفلا نقاتلهم؟ قال: لا ما صلّوا». وفي الحديث الآخر: «ما أقاموا الصلاة».

وكان سهل رحمه الله تعالى يقول: من أنكر إمامةَ السلطانِ فهو زنديق، ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع، ومن أتاه من غير دعوةٍ فهو جاهل. وكان يقول: الخُشيبات السودُ المعلقة على أبوابهم أنفع للمسلمين من سبعين قاضيًا يقضون في المسجد.

وقد كان أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى يقول: إذا كان السلطان صالحًا فهو خيرٌ من صالحي الأمة، وإذا كان فاسقًا فصالحو الأمة خير منه. وهذا قول عدل.

ولا يُكفّر أحدًا من أهل القبلة بذنب وإن عظم، ولا يُنزله جنة ولا نارًا بل يرجو له ويخاف عليه، وإن من مات مصرًا على الكبائر عن غير توبة منها في

(١) في المطبوعة: «أفكارهم».

مشيئة الله تعالى، إن أثبت وعيده عليه كان عدلاً، وإن عفا عنه وسمح له بحمه كان ذلك منه فضلاً. ولا نحكم ولا نقطع على الله تعالى بشيء، ولا نوجب لنا عليه شيئًا، إنّما نحن بين عدله وفضله وبمشيئته واختياره، إن حقق علينا وعيده فنحن أهلُ ذلك، وإن غفر لنا فهو أهل التقوى وأهل المغفرة. كيف وقد روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من وعده الله تعالى على عمل ثوابًا فهو مُنجزه له، ومن أوعده على عملٍ عقابًا فهو فيه بالخيار». والحديث الآخر أن النبى ﷺ سُئل عن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء:٩٣]، فقال: جزاؤه جهنم إن جازاه. ففى كل قضاء الله تعالى حِكمة بالغة وعدل، وحُكم صادق وحق.

وأن يصدِّق بجميع أقدار الله تعالى خيرها وشرها، أنها من الله تعالى، سابقة فى علمه، جارية فى خلقه بحُكمِه، وأنهم لا حول لهم عن معصيته إلا بعصمته، ولا قوة لهم على طاعته إلا برحمته، وأنهم لا يطيقون ما حَمَّلهم إلا به، ولا يستطيعون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا إلا بمشيئته، ونُؤمن بقدرة الله وآياته فى ملكه وغَيب ملكوته مما ذُكر فى الأخبار من كراماته لأوليائه، وإجاباته لأحبائه، وإظهار القدرة للصدّيقين والصالحين، مزيدًا لإيمانهم وتَثبيتًا ليقينهم، وتكرمة وتشريفًا لهم، وأنه ليس فى ذلك إبطال لنبوة الأنبياء، ولا إدحاض حججهم من قِبَل أن هؤلاء غير مثبتين ولا مخالفين للأنبياء، ولا ادعوا ما ظهر لهم بحولهم وقوتهم، ولا أظهروا دعوة إلى أنفسهم، ولا تظاهرًا به، ولا اجتلابًا للدنيا، ولا طلبًا للرياسة على أهلها، وإنما هو شيء كشفه الله تعالى لهم من سر ملكوته كيف شاء، وأظهرهم عليه من غيب قدرته أين شاء كما شاء، تخصيصًا لهم وتعريفًا، وهم للأنبياء متَّبعون، وعلى آثارهم مقتفون، ولسنَّتهم مقتدون، فآتاهم الله تعالى ذلك ببركة الأنبياء، وبحسن اتباعهم لهم، ولأنهم إخوانهم أبدالاً لا أشكالاً وعنهم أمثالاً.

وقد تواترت الأخبار عن الصحابة والتابعين الأخيار بما ذكرناه، فغنينا بالتواتر عن التناظر.

وأما الثماني الواقعات في الآخرة: فأن يعتقد العبد مساءلة منكر ونكير، يُقعدان العبد في قبره سَوِيًّا ذا روح وجسد، فيسألانه عن التوحيد وعن الرسالة، وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن، وهما فتّانا القبر، كذلك روينا عن رسول الله ﷺ، وهو معنى قول الله عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ قيل: عند مساءلة منكر ونكير ﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم:٢٧].

[ويعتقد أن] عذاب القبر حق، وحكمةٌ وعَدلٌ على الجسم والروح والنفس، يشتركون في ذلك حسب اشتراكهم في المعصية، وإن كان نعيمًا كان ذلك على الجسم والروح والنفس، يشتركون في النعيم كما اشتركوا في الطاعة؛ وهذا من أحكام الآخرة، يكون بمجاري القدرة ليس على ترتيب المعقول ولا عرف العقول، يوصل الله العذاب والنعيم إلى الأرواح والأجسام وهي متفرقة، فيتصل ذلك بهما، كأنهما ملتقيان، وليس في القدرة مسافة ولا ترتيب، ولا بعد ولا توقيت.

ويؤمن بالميزان ذي الكفتين واللسان أنه حقٌّ وعدل وحكمة وفضل، كما جاء في وصفه في العظم، من أن طبقات السموات والأرض توزن فيه الأعمال بقدرة الله تعالى. والصنج يومئذ مثاقيل الذرّ والخردل بحقيقة العدل، وقد خاب من حمل ظُلمًا، فتكون الحسنات في صورة حسنة تُطرح في كفّة النور، فيثقل بها الميزان برحمة الله تعالى، وتكون السيئات في صورة سيئة تُطرح في كفّة الظُّلمة فيخفُّ بها الميزان بعدل الله تعالى.

ويعتقد أن الصراط حقٌّ على ما جاء وصفه في الآثار، كدقّة الشعرة وحدّ السيف؛ وهو طريق الفريقين إلى الجنة أو النار، دَحْضٌ مَزِلَّة، يثبت عليه أقدام المؤمنين بقدرة الله عز وجل فيحملهم إلى الجنة بفضل الله تعالى، وتزلُّ عنه أقدام المنافقين فتهوى بهم في النار بحكمة الله عز وجل، وهو على متن جهنّم بإذن الله تعالى، من قطعه نجا منه برحمة الله، ومن زلَّ عنه وقع فيها بحكمة الله تعالى.

ويؤمن بالحوض المورود؛ حوض سيدنا محمد ﷺ، ليشرب منه المؤمنون قبل

دخول الجنة، وبعد جواز الصراط، من شرب منه شربة لن يظمأ بعدها أبدًا، عرضه مسيرة شهر، أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، حوله أباريق عددها نجوم السماء، فيه ميزابان يصبان من الكوثر(١).

ويؤمن بوقوع الحساب وتفاوت الخلق فيه. فمنهم من يُحاسَب حسابًا يسيرًا، ومنهم من يُناقَش الحساب، ومنهم من يدخل الجنة بغير حساب وهم المقربون، ومنهم من يدخل النار بغير حساب وهم الكافرون. وكان إمامنا أبو محمد رحمه الله تعالى يقول: يُسأل الأنبياء عن تبليغ الرسالة، ويُسأل الكفار عن تكذيب المرسلين، ويُسأل المبتدعة عن السنة، ويُسأل المسلمون عن الأعمال، فقولنا لقوله تبعٌ.

ويؤمن بالنظر إلى الله جلا جلاله عِيانًا بالأبصار كفاحًا مواجهة، تُكشف الحجب والأستار بقدرة الله ومشيئته ونوره ورحمته كيف شاء؛ وهو معنى قول الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، فالحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى الله تبارك وتعالى، وكذلك فسره رسول الله ﷺ.

ويعتقد إخراجَ الموحِّدين من النار بعد الانتقام، حتى لا يبقى في جهنم موحِّد بفضل رحمة الله ثم بشفاعة الشافعين من النبيين والصدِّيقين، وأن لكل مؤمن شفاعة بإذن الله، فيشفع النبيون والصديقون والعلماء والشهداء وسائر المؤمنين؛ كل واحد وُسْعَ جاهِه وقدر منزلته، أجمعت الروايات بذلك عن رسول الله في إثبات الشفاعة وفي إخراج الموحدين من النار؛ وهم الجهنميون من أهل الطبقة العليا من النار، وهو معنى قول الله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَو كَانُوا مُسلِمِينَ﴾ [الحجر:٢]. قال أهل التفسير ذلك عند إخراج الموحدين من النار، ويبقى الباقي لرحمة أرحم الراحمين، فيُخرج من النار بمشيئته وسَعَة رحمته وفضل فضله مَن لم يشفع لهم الشافعون، ولم يقدم في الشفاعة لهم المرسلون، هكذا روينا معناه عن رسول الله ﷺ.

(١) من قوله: «ويؤمن بالحوض» إلى هنا ساقط من المطبوعة، وتكثر مثل هذه الزيادة.

فهذه عقود السنَّة الهادية وطريقة الأمة الراضية. وقد أجمع السلف من المؤمنين على ما ذكرناه من قبل أنه لم يُنقل عن أحد منهم خلافه، ولا رُوى عن رسول الله ﷺ ضده، بل قد روى فى كل ما ذكرناه أخبار توجب إيجابه، ومعانٍ تشهد لإثباته، وتولَّى الله تعالى إجماعهم على سنة رسول الله ﷺ، كما تولى إظهار دينه على الدين كله. وروينا عن النبى ﷺ: «إن الله عز وجل ضمن لى ـ وفى لفظ آخر: أعطانى ـ أن لا تجتمع أمتى على ضلالة. فإذا رأيتم خِلافًا فكونُوا مع السّواد الأعظم»؛ والسواد الأعظم يعبَّر به عن الكثرة. فالمختلفون متفقون على أن السواد الأعظم ما عليه العامَّة من المسلمين والكافة من العموم، وأن المبتدعة والمخالفة لما ذكرناه إنما هم فِرَقٌ وشراذِم قليلون، وشيع وأحزاب متفرقون، لأنّ كلَّ مبتدعة منهم فِرقة، وكلّ شِرذمة منهم مختلفة، وليس السواد الأعظم والجمُّ الغفير الدُّهم إلاّ أهل السنة والجماعة؛ وهم السواد والعامَّة. ولذلك كان عمر بن عبد العزيز وغيره من الصالحين يقولون: ديننا دين العجائز وصبيان المكاتب ودين الأعراب؛ أى هو القديم السليم العام. وفسر ذلك رسول الله ﷺ فى الحديث الآخر فقال: «مَن كان على ما أنتم عليه اليوم».

فأجمعت الأمة على أن ما أحدثت الفرق المختلفة لم تكن عليه الصحابة، ولا تكلموا فيه، ولا نُقل عنهم، وأنهم كانوا على ما ذكرناه آنفًا؛ لأنه لم يُرو عن أحد منهم خلافه، بل قد نُقل عنهم وفاقه فى القرن الأول والثانى. ثم حدَث ما ذكرناه من الخِلاف فى بعض القرن الثالث، وفى القرن الرابع.

وقد كان عمرو بن دينار، وأيوب، وحماد بن زيد، إذا ذكر أحدهم الإرجاء ومذهب جَهم يقول: لعن الله دينًا أنا أكبر منه. يعنى أنه سبق حدوث هذه المذاهب التى تدين بها المبتدعون.

فلله الحمد؛ رب السموات ورب الأرض؛ رب العالمين، على حُسن توفيقه وجميل هدايته. وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله. فنعمة الله تعالى علينا بالسّنة كنعمته علينا بالإسلام، إذ نعمته علينا برسول الله ﷺ كنعمته علينا بمعرفته؛ لاقتران طاعتِه بطاعتِه، ولحاجة الكتاب العزيز إلى تفسير سنَّته.

وقد روينا فى حديث عمر عن رسول الله ﷺ: «الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد. ذئب أحدكم كذئب الشاة، يتبع الشّاذَّةَ والقاصيةَ، فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، ومن شذَّ ففى النار».

وروينا عن أبى غالب عن أبى أمامة: أنه نظر إلى رءوس الحرورية جيء بها من البصرة فنُصبت على الخشب بدمشق، قال: شرُّ قتلى تحت ظل السماء وخير قتلى من قتلوه، ثم قال: كلاب النار، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم زَيغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنهُ ابتِغَاءَ الفِتْنَةِ﴾ [آل عمران:٧]، ثم قرأ: ﴿يَومَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُم أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمانِكُم﴾ [آل عمران:١٠٦]، ويشير بإصبعه إليهم، ثم بكى. فقلت: يا أبا أمامة تقول فيهم ما تقول ثم تبكى؟ فقال: قاتل الله إبليس ما صنع بهؤلاء الناس يا أبا غالب، إنهم كانوا على ديننا، فأبكى مما هم لاقون، هؤلاء بأرضك كثير فأعيذك بالله أن تكون منهم؛ ثلاث مرات. فقلت: آمين يا أبا أمامة، أشيءٌ سمعته من رسول الله ﷺ أو شيءٌ تقوله من قِبَل رأيك؟ قال: إنى إذًا لجرئٌ، ثلاث مرات، لقد سمعت رسول الله ﷺ غيرة مرة، ولا مرتين، ولا ثلاث، ولا أربع، يقول: «تفرَّقت النّصارى على اثنتين وسبعين فرقة، تزيد أمتى عليها فرقة كلها فى النار إلا السواد الأعظم». فقال رجل كان معنا: يا أبا أمامة، إن فى السواد الأعظم بنى فلان، قال: وإن فعلوا، فإنّما عليهم ما حُمِّلوا وعَلَيكم ما حُمِّلتم، والجماعة خيرٌ من الفُرقة، والطاعة خير من المعصية، ثم نظر إلى الرءوس فقال: أتغضبون لنا وتقتلوننا؛ هذه رءوسُ الخوارج. وهم الحرورية، الذين خرجوا على أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه بالنَّهروان.

وهم أول قرن نبغَ من المبتدعة، وأول بدعة ابتُدعت فى الإسلام، وكانوا قرَّاءً، المصاحف فى أعناقهم، والسجَّادات كرُكَب المعزى فى جباههم، فأنكروا عليه تحكيمَ الحَكَمين، وسألوه أن ينقض حكمه فيرجع عنه، وقالوا: لا حُكم إلا لله، وأنكروا أمر السلطان، ورأوا الخروج على الإمام، وكفّروا عثمان، وصوّبوا قتل

الغُواة المصريين له، وطالبوا عليًا عليه السلام أن يوافقهم على رأيهم، ويتابعهم على أهوائهم، على أن يقاتلوا معه المسلمين إن رجعَ عن تحكيمه الحكمين، وكفَّروا أهل الكبائر بالمعاصى، فرأى علىٌّ ما أراه الله تعالى، وبما عهد إليه رسول الله ﷺ: من قتل المارقين، قاتَلَهم فقتَلَهم فهؤلاء فى النار، وقاتِلُوهُم ـ علىٌّ وأصحابه خيرُ أهل الأرض ـ فى الجنة. وكان رئيسهم فى الضلال وقائدهم فى القتال عبد الله بن الكوّا بن الأعور، قد كان علىٌّ رضى الله عنه يبغضه من قبل[1] أن يظهر منه ما ظهر، فخرج عليه عبد الله بن الكوّا فى ستة آلاف، فأرسل علىٌّ عليه السلام عبد الله بن عباس إليهم يناظرهم ويحاجهم، فسبّوه وبطشوا به، وجرّأهم عليه «ابن الكوّا» هذا فقام خطيبًا فيهم فقال: أتعرِّفونى بهذا؟ أنا أعرِّفكموه، هذا من القوم الذين قال الله فيهم: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٨]، ثم تراجع بعضهم إلى ابن عباس، فسأله فكشف له عن الحق، واستتاب منهم ألفين، وقاتل علىٌّ كرّم الله وجهه أربعة آلاف؛ فهذه أول فرقة مَرقَت من الدّين، واتبعت غير سبيل المؤمنين.

ثم افترقت الفرقة الثانية بالمدائن، فرأوا دينَ الإرجاء، وأن الإيمان قول وعمل، وأنه لا يزيد ولا ينقص. وكتب بذلك إلى أمير الشام، فهمَّ بقتالهم، ثم شُغل عنهم بقتال الروم، ثم افترقت الفرقة الثالثة بالبصرة، وهم القدرية إمامهم معبد الجهنى، وتابعه عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء الغزّال، وأصحابهم. ثم خرجت الفرقة الرابعة من الكوفة، سُموا بذلك لما رفضوا زيد بن على بن الحسين حين خرج يقاتل هشامًا، فقالوا له: تبرأ من أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما. قال: هما جداى إماما عدل لا أتبرأ منهما، فرفضوه. ثم افترقت كلُّ فرقة ثماني عشر فرقة، فتمَّت اثنتان وسبعون فرقة، وكلها نبغ[2] بأرض العراق، ومنه طلع قرن الشيطان، وظهرت الفتن، نعوذ بالله منها، ما ظهر منها وما بطن.

وقد روينا عن بن عباس عن النبى ﷺ: «إن لله عز وجل ثلاثة أملاك؛ ملَك

(١) من قوله: «فى الجنة» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

(٢) نبغ الشيء: ظهر. ويقال: نبغ منه أمر ما كنا نتوقعه، ونبغ من قلبه ما أضمره.

على ظهر بيت الله تعالى، ومَلَك على مسجد رسول الله ﷺ، ومَلَك على ظهر بيت المقدس، ينادون كل يوم، يقول الملك الذى على ظهر بيت الله تعالى: من ضيَّع فرائض الله خرج من أمان الله، ويقول الملك الذى على ظهر مسجد رسول الله ﷺ: مَن خالف سنة رسول الله ﷺ لم تنله شفاعة رسول الله ﷺ، ويقول الملك الذى على ظهر بيت المقدس: من أكل حرامًا لم يُقبل منه صرف ولا عدل».

شرح معاملة القلب من العلم الظاهر

* ذكر مبانى الإسلام وأركان الإيمان:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف:١٧٢]. وقال عز وجل: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِى وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة:٧]. وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُم لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُم وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨].

فمبانى الإسلام خمسة: أولها شهادة أن لا إله إلا الله وحده، وأن محمدًا ﷺ عبده ورسوله؛ وهما كواحدة لاتصال إحداهما بالأخرى فى الوجوب والحكم. وإقام الصلوات الخمس، وهنّ كواحدة منها لتعلق كل واحدة بصاحبتها. وإيتاء الزكاة، وهى كالصلاة؛ لاقترانها بها والاشتراط بها. وصوم رمضان. وحجّ البيت؛ وهما كشىء واحد من الفرض.

فهذه الخمس كواحدة منهن فى إيجاب العقد واعتقاد الوجوب، وإن اختلف الحُكم فى سقوط فعل بعضها بشرط. وروينا عن رسول الله أنه قال: «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وإقام الصلوات الخمس، وإيتاء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحج البيت».

وأركان الإيمان سبعة: الإيمان بأسماء الله وصفاته، والإيمان بكتب الله تعالى وأنبيائه، والإيمان بالملائكة والشياطين، والإيمان بالجنة والنار، وأنهما قد خلقتا قبل آدم ﷺ، والإيمان بالبعث بعد الموت، والإيمان بجميع أقدار الله خيرها وشرها، حلوها ومرها، وأنها من الله تعالى قضاءً وقدرًا أو مشيئة وحكمًا، وأن ذلك عدل منه، وحكمة بالغة، استأثر بعلم غيبها ومعنى حقائقها، لا يُسأل عما يفعل، ولا تُضرب له الأمثال بملزمات العقول، وتمثيلات المعقول، تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا. وقد شهد الله سبحانه وتعالى بالضلالة على من ضرب لعبده الأمثال، فقال تعالى جده: ﴿انْظُرْ كَيفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا﴾ [الإسراء:٤٨]. فكيف بمن ضرب المثل للسيد الأجلّ بعد نهيه عن ذلك، وإخباره بعلم غيب ذلك، إذ يقول: ﴿فَلا تَضْرِبُوا لله الأَمْثالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٧٤]؟ والإيمان بما صحّ من حديث رسول الله ﷺ، وقبول جميعه، وافتراض طاعته وأمره على العباد والتزام ذلك، إذ قد جعل الله تعالى طاعة رسول الله ﷺ من شرط الإيمان وقَرَنها بطاعته، فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤمنينَ﴾ [الأنفال:١]. واشترط للرحمة طاعة الرسول كما اشترط لها تقواه فقال: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٦]. وحذّر من مخالفة أمر رسول الله ﷺ في الاستجابة له، [فأقامه] مقامه، وجعله في المبالغة في الوصف والمدح بدلاً عنه، فقال تعالى: ﴿فَلْيَحذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عن أَمرِهِ أَنْ تُصِيبَهُم فِتنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]. كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤]، لأنه قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ [الفتح:١٠]. وهذه أمدحُ آيةٍ في كتاب الله تعالى وأبلغ فضيلة فيه لرسول الله ﷺ، لأنه جعله في اللفظ بدلاً عنه، وفي الحكم مقامه، ولم يدخل بينه وبينه كاف التشبيه «كإنما» ولا «لام الملك» فيقول: لله تعالى، وليس هذا المقام من الربوبية لخَلقٍ غير رسول الله ﷺ.

❊ ❊ ❊